فاطمة بنت عبد الملك

ربما كان حديث ابن ابي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان أظرف مامرّ بنا من الأحاديث ، لما فيه من المفاجآت التى تمثل دهاء ربات القصور فى ذلك الحين . فقد روى صاحب الاغانى انها حجت فكتب الحجاج الى عمر بن ابى ربيعة يتوعده ان ذكرها فى شعره بكل مكروه وكانت تحب أن يقول فيها شيئا وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجها خرجت فمرّ بها رجل فقالت له : من انت ؟ قال من أهل مكة . قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله قال ولِمَ ذاك ؟ قالت : حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى مالم تر الأعين مثلهن . فلم يستطع الفاسق ابن ابى ربيعة ان يزوّدنا من شعره ابياتا نلهو بها فى الطريق فى سفرنا . قال : فانى لاراه إلا قد فعل قالت فأتنا بشىء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير . فمضى اليه فأخبره . فقال : لقد فعلت ، ولكن أحب ان تكتم علىّ ، قال أفعل . فأنشده

راع الفؤاد تفرق الاحباب يوم الرحيل فهاج لى أطرابى
فظللت مكتئباً أكفكف عبرةً سحّاً تفيض كوابل الأسراب

لما تنادوا للرحيل وقرّبوا بُزُل الجمال لِطيةٍ وذهاب
كادالأسى يقضى عليك صبابة والوجه منك لبين إلفك كابِ

وانشده :

هاج قلبى تذكر الأحباب واعترتنى نوائب الاطراب

وهى قصيدة طويلة ذكر صاحب الاغانى فى اخبار حنين ان ابن أبي ربيعة قالها في فاطمة بنت عبد الملك وذكر فى أخبار الشاعر نفسه انه قالها فى الثريا بنت على . فلنقيد ذلك فانه يؤيد ماأشرنا اليه من ان ابن أبى ربيعة غير صادق الحب ، وانه ينقل شعره من جميلة الى جميلة وَفقاً لمقتضيات الظروف ، وان الرواة وضعوا من أقاصيص عشقه ماشاء لهم الخيال ، تزويحاً لأنفس السامرين من الخلفاء والأمراء

* * *

مسابرها لعمر على تلك الخرائر

ولنذكر تلك القصة الطريفة التى رواها صاحب الاغاني فى اخبار ابن ابى ربيعة ، اذ نقل انه كان جالسا بمنى فى فِناء مضربه وغلمانه حوله ، فأقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فسلمت فردّ عليها السلام ، فقالت له : انت عمر بن ابى ربيعة ؟ فقال لها : انا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له : حيّاك الله وقرّبك هل لك فى محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأتمهم خلقاً ،

وأكملهم ادبا ، وأشرفهم حسبا ؟ قال : ماأحبّ الىّ ذلك ! قالت : على شرط . قال : قولى . قالت : تمكّننى من عينيك فأشدّهما وأقودك حتى اذا توسّطت الموضع الذى اريد حللت الشدّ ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك الى مضربك . قال : شأنك . ففعلت ذلك به فلما انتهت به الى المضرب الذى ارادت ، كشفت عن وجهه ، فرأى امرأة على كرسى لم ير مثلها قط جمالاً وكمالا . فسلم وجلس . فقالت : أنت عمر بن ابى ربيعة ؟ قال : انا عمر . قالت انت الفاضح للحرائر؟ قال : وما ذاك ، جعلنى الله فداك ! قالت : ألست القائل :

قالت وعيش ابى وحرمة والدى ... لأُنبّهن الحىّ ان لم تخرج

فخرجت خوف يمينها فتبسّمت ... فعلمت أن يمينها لم تحرَج[1]

فتناولت رأسى لتعرف مسّهُ ... بمخضّب الأطراف غير مُشنّج[2]

فلثمت فاها آخذاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج[3]

ثم قالت : قم فاخرج عنى ! ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشدّت عينيه وقد دخله من الكآبة والحزن ما لا طاقة له به ، وبات

(١) من الحرج وهو الضيق ، يريد انها لم تحلف معتزمة الحرص على اليمين

(٢) مشنج : متقبض (٣) القرون : أفرع الشعر ــ والنزيف : كالمنزوف هو الظمآن الذى جف لسانه من العطش ، أو هو المحموم الذى منع الماء ــ والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويطيب

ليلته . فلما أصبح اذا هو بها فقالت : هل لك فى الوَد ؟ فقال شأنك ففعلت به مثل فعلها بالأمس حتى انتهت به إلى الموضع ، فلما دخل اذا بتلك الفتاة على كرسى . فقالت : إيهِ يا فضّاحَ الحرائر ! قال : بماذا ؟ جعلنى الله فداكِ ! قالت : بقولك :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى على الرمل من جبانة لم توسَّدِ
فقالت على اسم الله أمرك طاعةٌ وان كنت قد كُلِّفتُ مالم أُعوَّدِ
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى فقم غير مطرود وان شئت فازدد

ثم قالت : قم فاخرج عنى ! فقام فخرج ثم رُدَّ ، فقالت له : لولا وَشْكُ الرحيل ، وخوف الفَوْت ، ومحبّتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ، لأقصيتك . هات الآن كلِّمنى وحدّثنى وأنشدنى ، فكلّم آدب الناس واعلمهم بكل شىء . ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخلا له البيت ، فأخذ ينظر فاذا هو بتَوْر فيه خلوق [1] فأدخل يده فيه ثم خبأها فى رُدنه [2] وجاءت تلك العجوز فشدّت عينيه ونهضت به تقوده حتى إذا صار على باب المضرب أخرج يده فضرب بها على المضرب ثم صار إلى مضربه

(١) التور : اناء صغير . قال صاحب الاساس ومررت بباب العمرة على امرأة تقول لجارتها : أعيرينى تويرتك . سمى بذلك لانه يتعاور ويردد ، أو سمى بالتور وهو الرسول الذى يتردد ويدور بين العشاق . ومأخذه من التارة لانه تارة عند هذا وتارة عند هذا (٢) الردن : الكم

فدعا غلمانه فقال : أيكم يقفى على باب مضرب عليه خلوق كأنه أترك ف فهو حر ، وله خمسمائة درهم . فلم يلبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهض معه فاذا هو بالكف طَرِيَّة ، واذا المضرب مِضرب فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان ، فأخذتْ فى أُهبة الرحيل ، فلما نفرتْ نفر معها ، فَبصُرت فى طريقها بقباب ومِضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك فقيل لها : هذا عمر بن أبى ربيعة ، فساءها الأمر ، وقالت للعجوز التى كانت ترسلها اليه : قولى له نشدتك الله والرحم أن تصحبنى ، ويحك ! ما شأنك وما الذى تريد ؟ انصرف ولا تفضحنى وتُشيطَ بدمك[1] ، فسارت العجوز اليه فأدّت ما قالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف أو توجّه إلىّ بقميصها الذى يلى جلدها ، فأخبرتها ففعلت ووجّهت اليه بقميص من فزاده ذلك شغفاً ، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى إذا صاروا على ن دمشق انصرف وقال فى ذلك :

ضاق الغداة بحاجتى صدرى
ويئست بعد تقارب الأمر
وذكرت فاطمة التى عُلِّقتها
عَرَضاً فيا لحوادث الدهر

(١) أشاط دمه وبدمه : أهدره وعرض نفسه للقتل

ممكورةٌ رَدْع العبير بها جمُّ العظام لطيفة الخصر (١)
وكأن فاها عند رَقْدتها تجرى عليه سُلافة الخمر
شَرِقًا بذَوْب الشهد يخلطهُ بالزنجبيل وفأرة التجر (٢)
عرضت لنا بالخَيْف فى بترٍ
تقْرو السكَباتَ وناضر السِّدر (٣)
وجلَت أسيلاً يومَ ذى خُشُبٍ ريَّان مثل فُجاءة البدر (٤)
فسبَتْ فؤادى إذ عرضت لها يوم الرحيل بساحة القصر
بمُزيَّنٍ رَدْع العبيرِ به حسَنِ الترائب واضح النحر (٥)
وبجيدِ آدمَ شادنٍ خرقٍ يرعى الرياض ببلدةٍ قفْرِ (٦)

(١) الممكورة : الحسناء المستديرة الساقين المحكمة التكوين ، والردع أثر الطيب فى الجسد ــ والعبير الزعفران أو اخلاط من الطيب . وجم العظام : دقيقتها مكتنزة اللحم والقياس أن يقول : جماء. ولكن ابن أبى ربيعة كثير التساهل في ضوابط العربية

(٢) التجر : جمع تاجر والفأرة نافجة المسك . قال صاحب القاموس : أو الصواب إيراد فارة المسك في فور لفوران رائحتها أو يجوز همزها لأنها على هيئة الفأرة. وقيل لأعرابى : أتهمز الفأرة؟ فقال : الهرة تهمزها . وغرض الشاعر من هذا البيت والذى قبله وصف ثغر المحبوبة بطيب النكهة وعذوبة المذاق (٣) تقرو : تتبع ــ والكبات كسحاب النضيج من ثمر الأراك ــ والسدر : شجر النبق (٤) الاسيل : الرقيق ــ وذو خشب بضمتين واد على مسيرة ليلة من المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازى

(٥) الترائب جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر (٦) الجيد : العنق ــ والادم من الظباء ما فيه أدمة وهو لون مشرب بياضا ، وهي في الانسان السمرة فيقال: رجل آدم اللون أى أسمره ــ والشادن : الظبى الذى شدن أى قوى واستغنى عن أمه وهو أول العهد بالمرح وجنون الشباب ــ والخرق هو الخائف المتحير

لمّا رأيت مَطيَّها حِزَقاً خَفَق الفؤاد وكنت ذا صبر[1]
وتبادرت عيناىَ بعدهمُ وانهلّ دمعها على الصدرِ

ومن شعره فيها وقد جدّ بها الرحيل

كدتُ يوم الرحيل أقضى حياتي ليتني متُّ قبل يوم الرحيلِ
لا أطيق الكلام من شدة الوجْـ ـد ودمعي يسيل كل مسيلِ
ذرفت عينُها ففاضت دموعي وكلانا يلقى بلُبٍّ أصيلِ
لو خَلَت خلتي أصبتُ نوالاً وحديثاً يشفى مع التنويلِ
ولظَلّ الخلخال فوق الحشايا مثل أثناء حية مقتول[2]
ولقد قالت الحبيبة لولا كثرة الناس جُدت بالتقبيل
ليس طعم الكافور والمسكِ شِيبا ثم عُلاً بالراح والزنجبيل[3]
حين تَنْتابُها بأطيبَ من فيـ ـها طُروقاً إن شئت أو بالمقيل[4]

(١) الحزق جمع حزقة بالكسر وهي الجماعة (٢) الحشايا جمع حشية وهي الفراش المحشو ـ وأثناء الحية مطاويها وتضاعيفها اذا تثنت ، وجرى وصفها مذكرا اذ كانت لا تقصر على التأنيث (٣) شيبا : مزجا من الشوب وهو المزج ـ وعلا : من العلل بفتحتين وهو الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، يقابل النهل بفتحتين وهو الشرب الاول ـ والمراد من عل الكافور والمسك بالراح والزنجبيل اضافة الأخيرين الى الاولين ليتألف منها الشراب
(٤) تنتابها : تزورها . من الانتياب وهو الاتيان مرة بعد أخرى ـ والطروق: زيارة الليل ـ والمقيل : راحة الظهيرة . والشاعر يصف محبوبته بطيب الفم في وقت القيلولة وعند هدأة الليل لان هذا أدل على قوة الصبا اذ كانت الافواه تتغير عادة عند الهجوع

ذاك ظنى ولم أذق طعم فيها ... لا وما فى الكتاب من تنزيل
رَبعةٌ أو فُويق ذاك قليلاً ... ونؤوم الضحى وحق كسولِ (١)

وقال فيها أيضاً هذه الرائية :

يا خليلى شفّنى الذِّكرُ ... وحُمول الحيِّ إذ صدروا
ضربوا حُمر القباب لها ... واديرت حولها الحُجَرُ
لو سُقى الاموات ريقتها ... بعد كأس الموت لانتشروا
ويكاد الحَجْل من غَصصٍ ... حين تستأنيه ينكسر (٢)
ويكاد العجز ان نهضت ... بعد طول البُهر ينبتر (٣)
أخيام البئر منزلهم ... أم هُمُ بالعمرة ائتمروا (٤)
أم بأعلى ذى الأراك لهم ... مَرْبعٌ قد جاده المطر (٥)
سلكوا شِعب النِّقاب بها ... زُمَرًا تحتثُّها زُمَرُ (٦)

(١) ربعة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة ــ ونؤوم الضحى : كناية عن الترف اذ لا تنام الضحى الا المرأة المخدومة التى يقوم وصائفها بما يعنيها من مختلف الشئون ، وهى لذلك مكسال (٢) الحجل بالكسر والفتح الخلخال ــ والغصص : الضيق ــ وتستأنيه : تثبته (٣) البهر : انقطاع النفس من الاعياء ــ والبتر : القطع (٤) البئر : اسم لعدة اماكن أكثرها بالمدينة ، منها بئر رومة وبئر رئاب وبئر عروة وبئر غدق . ولم نعرف بالضبط مايقصد الشاعر من بين هذه الآبار (٥) وادى الاراك قرب مكة . قال ياقوت : وذو أراك في الاشعار (٦) النقاب موضع من أعمال المدينة يتشعب منه طريقان الى وادى القرى ووادى المياه ــ وتحتث : تسوق

وطرقت الحي مكتتماً ومعى عضبٌ به أثرُ (١)
وأخٌ لم أخش نبوته بنواحى أمرهم خَبِرُ (٢)
فاذا ريمٌ على فُرُش فى حِجال الخزّ مختدر (٣)
حوله الأحراس ترقبه نُوَّمٌ من طول ما سهروا
شَبَهُ القتلى وما قُتلوا ذاك إلا أنهم سَمَروا (٤)
فدعت بالويل آونة حين أدنانى لها النظر
ودعت حوراء آنسةً حرة من شأنها الخفر (٥)
ثم قالت للتى معها ويح نفسى قد أتى عُمر
ماله قد جاء يطرقنا ويرى الاعداء قد حضروا
لشقائي كان علّقنا ولحيني ساقه القدر (٦)
قلت عرضى دون عِرضكمُ ولمن ناواكم الحجر (٧)

(١) العضب : السيف القاطع ــ وأثر السيف افرنده (٢) النبوة : الجفوة ــ وخبر : خبير
(٣) الحجال : جمع حجلة بفتحتين وهى قبة تزين للعروس ــ ومختدر : ناعس
(٤) وسمروا من السمر وهو حديث الليل . وقد يراد به شرب الخمر
(٥) الخفر : شدة الحياء (٦) الحين بالفتح الهلاك (٧) العرض هنا النفس ومنه قول حسان :

فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

وقد يراد به الجسد كما في الحديث (يجرى من أعراضهم مثل ريح المسك) وناواكم : من المناوأة وهى المعاداة

أزواجها

كانت فاطمة بنت عبد الملك تحت عمر بن العزيز ، فلما مات عنها تزوجها داود بن سليمان بن مروان ، وكان قبيح الوجه ، فقال فى ذلك موسى شهوات

أبعد الأغر بن عبد العزيز قريع قريش إذا يُذكرُ
تزوجتِ داود مختارةً ألا ذلك الخلف الأعور

فكانت إذا سخطت عليه تقول : صدق والله موسى ، إنك لأنت الخلف الأعور ! — فيشتمه داود

ولفاطمة بنت عبد الملك أحاديث فى فتنة من عاصرها من الشعراء ، كنا نود ذكرها لولا إيثار الايجاز